الزهـــراء

(يخرج آخر فوج من السائحين بعد رؤية أطلال مدينة الزهراء ، يغلق الحارس باب الدخول من السور ، بعد ذلك يعود إلى مسكنه ، يقترب الغسق ، نستمع إلى رفرفة حمامة ، بيضاء ، يشوبها سواد على شكل طوق ، تحط فوق أعلى مكان من الطلول ، تترقب ، تتهادى ، تقف ، تختفى وراء تاج عمود أوسارية ، وحين تظهر ثانية نرى الزهراء) .

الزهراء : (باحثة عن أحد) عبد الرحمن ، . . عبد الرحمن الناصر . . . عبد الرحمن .. (فى حزن) لم تأت اليوم كذلك ، لقد أزهرت أشجار اللوز ألفا وثلثمئة وخمس مرات منذ أن مضيتُ ، منذ أن أغمضت عينىّ ، ومنذ أن بسطت يدك يا عبد الرحمن مغطيا وجهى بآخر قناع ، ألفا وثلثمئة وخمس مرات اختلفت إلى هذه المدينة حيث أبرمنا معاهدة أنت تنقضها يا عبد الرحمن أين مضيت ؟ أين اختفيت ؟ إن ظلت واقفة هاتيك الأعمدة منذ ذلك الحين ، وتلك المآذن السامقة ، وهذه الجدران المطرزة منذئذ فربما أفكر فى أنك ستخرج ضاحكا من

خلـف أحـد الأعـمـدة أو المآذن أو الجـدر
التى اختـفـيت وراءها كـمـا كنت تلعب
أوانئذ . . . لكن ماذا بقى هنا مما كان ؟
حـجـارة ، حطام ، حـجارة آلت حطاما ،
وحبى ، . . بل حبنا

يا عبد الرحمن : فى ذرع الزمن والرجـال أن يأتوا على
أجمل مدينة عرفها الزمان والناس ، بيد
أنه ليس فى وسع قوة أن تأتى على هذا
الحب الذى من أجله شـيـدت هذه
المدينة ، فوقها يا عبد الرحمن كانت
تقف الكواكب من أجلى وأجلك ،
شكراً ياحـبى لأن كل شىء تحـول فى
يديك إلى معـجزة ، لأننى بجانبك –
طوال الوقت – أقنعـتنى بأن الموت لم
يكن مدعوا على مائدة أعيادنا : وأننى
كنت خالدة ، وأنت خالد ، وخالدة
كذلك أفراحنا ، شكرا يا حبى ، يا عبد
الرحـمن ، من أجل المعـاهدة التى
أبرمناها معا تحت هذا القمر ذاته الذى

كان يفضّض الحدائق ، ويرطب الأبهاء
بالضياء ، ويتلألأ في الغدران معاهدتنا
التي أبرمناها أول مساء . . .

عبد الرحمن : (**خارج المشهد**) سأبتعد عن كل ما
يبعدني عنك ، وسأنأى عن كل ما
يقصيني عنك . . .

الزهراء : (**خارج المشهد**) (**كأنه صدى**)
سأنأى عن كل ما يقصيني عنك . . .

عبد الرحمن : (**خارج المشهد**) كوني وفية للعهد
مادمت أنا وفيا : أن تكوني محبوبة
يقتضيك أن تكوني محبة . . .

زهرة : أين أنت يا عبد الرحمن الناصر ؟ آه !!
ما أقرب ماكنا ، ومأبعد ما نحن اليوم !
كم مرة حتى الآن عليّ أن أهبط قبل
أن أستقر من جديد بين ذراعيك ؟ لأنه
ليس ثمة امرأة كانت محبوبة مثلي ،
لكن ليس ثمة امرأة كذلك كانت
عاشقة مثلي .
(منظر لمدينة قرطبة ، ربما من فوق

منارة الكاتدرائية . الجو ليلا)

الـــــزهـــــراء : أذكر أول مرة رأيتك فيها ، كانت فى بهو البرتقال بالحامة الكبرى : فى مكان كان قلب مدينة قرطبة حينما كانت قرطبة قلب العالم ، وأنت أول خليفة أموى يستقل عن خلافة بغداد ، تتعايش هنا كل الأجناس ، كل الأديان ، يؤمها علماء من فارس ، وبيزنطه ، معماريون من دمشق والإسكندرية ، موسيقيون ، وشعراء من كل فج عميق ، وقرطبة المدهشة المذهلة ، كانت تحتوى الجميع ، وكنت الملك الأكثر حرية وثقافة فى كل الممالك : حيث كان الحداد يلبس البياض ، وحيث كانت الراية أيضا . . . كان ملوك النصارى مثل عمد القرى ، ويعيشون عيشة عمد القرى حين يقارنون بك ، كنت تتلقى هدايا هائلة من ملوك بعداء ، وأجمل السبايا من كل الأصقاع . .

وكنت أنا واحدة منهن ، عبد الرحمن ،
ياحبى . . .
(قريبا من نافورة بهو البرتقال ، خارج المشهد كل الحوار الآتى والوقت نهارا)

الزهراء : حدث ذات صباح ، استمعت هنا – مذعورة – حديثا بلغات شتى . . .
كنت قادمة من إلبيرة ، قروية ، من سييرا نيڤادا كنت بين زميلاتى مثل شاة تنتظر المدية ، كانت تسمع نواقيس المستعربين ، وأصوات المؤذنين ، وكان الهواء يفوح برائحة أزهار البرتقال . . .

عبد الرحمن : (**خارج المشهد ، كأنه يتذكر**) كان الهواء يفوح باسمك يازهراء . . .

الزهراء :كان عالما جديدا جدا بالنسبة لى ، قد وصلت من جليد جبالى . . وصلت فى أبريل ، حيث كانت فى ظلال انتصاراتك ، الممتدة حول البهو ، كان الفقهاء يقننون العدالة ، والأساتذة

يلقون دروسهم ، والأثرياء يتنافسون في مزادات المخطوطات والأعمال الفنية الغريبة ، والشعراء الفتيان ينشدون قصائدهم الغزلية ، ويطالع العلماء متربعين في ضوء الشمس ، والقيان يعزفن ويغنين أغنيات من بلادهن ، وتشمخ الراقصات بصدورهن في الرقصة . . وأنا أنظر كل هذا مذعورة مثل شاة تنتظر المدية ، كنت في الخامسة عشرة من عمري ، وكان الهواء يفوح برائحة البرتقال .

عبد الرحمن : (**خارج المشهد كأنه يتذكر**) كان الهواء يفوح باسمك يازهراء . . .

الزهراء : موجة من الضجة ، وحدوث حركة مفاجئة ، الخليفة وصل . رأيته عبر وجوه كثيرة أخرى ، لم أكن رأيته من قبل ، لكني عرفت من هو . كنت أنت يا عبد الرحمن كان يتخلل شعرك الذهبي شعرات فضية ، رأيتك

هادئا عـذبا ، فكرت : « لابد أن يكون
الملك على هذه الصورة » فجأة وقفت
الحـاشـيـة ، وقـفـت حين وصلت إلى
مكانى . وبإيماءة منك أقصيت الذين
كانوا يفصلون بيننا ، ودون أن تطرف
عينك ، ودون أن تبتسم ، ودون عجلة
اقتربت منى مثل من يقصد هدفه
مباشرة ، ومثلما تشعر شاة بشفار
المدية شعرت بنظرتك ، أطرقت برأسى
(تفعل هذه الحركة)

عبد الرحمن : (**خارج المشهد**) ما اسمك ؟

الزهراء : (**خارج المشهد**) الزهراء ياسيدى .

عبد الرحمن : (**خارج المشهد**) كل شىء يفوح
هذا الصباح برائحة الزهر ، هذا الصباح
كل شيء يفوح باسمك ، ليحفظ الله
من سَمَّاكِ الزهراء .

الزهراء : (**فى المشهد**) سمونى بالزهراء حين
ولدت ، إن قدرى لم يصنع شيئا سوى
تقبل الاسم الذى خلعوه علىّ .

عبد الرحمن : (**خارج المشهد**) سأفعل ما يجعل لاسمك الذكر الأبدى .

الزهراء : (**فى المشهد**) لقد شيدت مدينة الزهراء يا عبد الرحمن ، لم تر أعين الناس ، وما رأت ، ولن ترى مدينة مثلها .

(مرة أخرى بين الطلول)

الزهراء : لقد اتفق كل العالم على أن يشيد هذه النادرة امتلأت البحار بالسفن المقلعة من أفريقيا وسورية ، وإيطاليا واليونان محملة بالهدايا من أجل مدينة الزهراء ، وقدم من تونس وميديا اليشب الأخضر والوردى ، وما بقى من قرطاج أحضروه إلى هنا وأرسلت روما الأعمدة ، ومن بيزنطة الأحجار السماقية والفسيفساء ، ومن طاراجونة ومالقة وألمرية الرخام الخمرى والأبيض والمجزع ، لقد آضت مدينة الزهراء تاج العالم ، هنا كانت الأحجار

مثل الزهور ، وكانت الزهور أحجاراً
ثمينة ، لقد رصعت بطانة السقوف
بلآلئ مجسمة ، وتحت الأرصفة كانت
السواقى تصدر أنينا على ثمانية وثلاثين
نمطا مختلفا لكى تثير النفس ، أو تهبها
الإغفاء ، أو تهدهدها ، كان فى المداينة
أكثر من ستة آلاف عمود ، وأكثر من خمسة
عشر ألف . . .

عبد الرحمن : (خارج المشهد) سأفعل يازهراء ما
يجعل لاسمك الذكر الأبدى .

الزهراء : فى اليوم الذى أحضرتنى فيه ، فرشت
الطريق بنثار الذهب والناردين ، والقرفة
كيلا تلوث الأرض أقدام العبيد الذين
كانوا يقلون هودجى وهذه هى الغرفة
التى التقينا فيها أنت وأنا كانت
أقباؤها العالية مرصعة بالذهب والفضة ،
هنا كانت البحيرة التى كنت أستحم
بها ، المشيدة باليشب الأخضر المرصع
باللآلىء وحولها اثنا عشر حيوانا

مصوغا من الذهب الإبريز ، تلفظ المياه
من أفواهها ، وعلى إيقاع هذه المياه قلت
لى ذات يوم . . .

عبد الرحمن : (خارج المشهد) كم أود أن أفتح
فؤادى ، وأضعك بداخله ، ثم أغلقه ،
كيلا تستطيعى السكنى فى غيره حتى
يوم النشور .

الزهراء : هنا عانقتنى بعنف ياحبى ذات أصيل ،
وضممتنى ضم الكمىّ سلاحه ،
وتدلت ضفيرتاى من عند كتفيك
مثل حمالتى السيف .

عبد الرحمن : (خارج المشهد) فى المساء نمت فوق
قلبى ، وبرفق زحزحتك عن ضلوعى
كيلا تنامى على وساد خافق . . .

الزهراء : لقد نظمتنا يد الحب للسرور والجمال :
كنا مثل الخرز وكان الحب مثل الخيط . .
(فى شكوى) من الذى استطاع أن
يقطع هذا الخيط يا عبد الرحمن
ياحبى ؟ قل لى من الذى استطاع أن

يتعدى عليك أيها الناصر . . . (فى مكان آخر من الأطلال) كانت هذه هى قاعة سفرائه ، بجدرانها المرمرية القوية بزخرفتها المفرغة ، بأبوابها الثمانية من الأبنوس والعاج وبطانة سقفها مرصعة باليواقيت ، والعقيق ، والجزع ، وبحيرة الزئبق الضخمة تبهر من كان ينظر إليها ، كما تبهر من ينظر إليك يا عبد الرحمن ياحبى ، أين ذهبت ؟ . . . هنا عذلك نصرانى أن تتوله بقينة مثلى وأنا عبر المشربية سمعتك تجيبه .

عبد الرحمن : (خارج المشهد) لو كان فى ذرعى أن أسيطر على حبى ربما لم أحبها ، بيد أن سلطانى لا يصل إلى كل هذا ، لست أحبها لحلاوة مقبلها ، ولا لوميض عينيها ، ولا لجفونها المراض ، لست أهواها لأن من بين أصابعها تثب متعتى ، وتلعب كما تلعب الأيام مع

الآمــال ، لست أهـواها لأن جـســدها
يمثل لى الربيع الوحيـد ، لست أحبـهـا
لأنه حين أراها أشعـر بالرى فى الحلق ،
وبالظـمأ الحـارق فى الوقت ذاتـه ، إننى
أهواها ببـسـاطة ؛ لأنه ليس فى وسعى
صنع شئ غير أن أهواها .

الــزهــراء : من الذى جذم آصرة روحينا ياحبى ؟
من الذى حل الأنشوطة المعـقـودة فى
يدينا ؟ منحوس ، منحوس ، منحوس ،
كنـا فى الغـسق جـالسين بين زهر
الأنيمونى بالقرب من السنبل البرى ،
وعلى شـاطئ البـحـيـرة وارف
النيلوفـرحين سـمعنا بوضـوح صـوتا
واضحا ياحبى . . .

صـوت الرجل : رغبتم فى تشييـد مـدينة خـالدة ،
رغـبـتـم فى بناء مـســاكن أبدية ،
ستعلمون قريبا أن فئ عوسجة يكفى
لمن يصـل مجهدا فى نهـاية رحلتـه ،
(يسمع صراخ خارج مدينة الزهراء)

(فى خارج المسجد)

صـــــوت : إنكم قد آثرتم غضب الله ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، وسعى فى خرابها ، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ، لهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا ، فثم وجه الله ، فاتقوا الله ، ومارسوا السلام مع إخوانكم ، لعلكم ترحمون .

الـــزهـــراء : (ذاهبة نحو المحراب) هنا مكان مقدس ، كل الناس ذكروا هنا خالقهم أيا كان الاسم الذى أطلقوه عليه ، هنا تعبَّد الرومان ، وأمم أخرى خلت من قبلهم ومن قبل النصارى والمسلمين ، ثم من جديد يتعبد النصارى ، لكنها أمة فى إثر أمة . ومع ذلك فإنه شىء جميل فى مكان مثل هذا ، قريب من النهر ، بين الجبل والقرى أن يعبد

الناس جميعاً مرة واحدة هذا الذى خلقهم على صورته : كل هؤلاء الذين استقروا بجانب النهر العريق بين الجبل وبين الريف ، تبارك الله القدير (مذعورة) الذى يحيى ويميت وإليه النشور .

صـــوت : «وإذ قال إبراهيم ، رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم » .

الزهـــراء : (بين الأعمدة) يا عبد الرحمن ، يا عبد الرحمن ، لماذا كل عمود يباين الآخر هل لكيلا ألقاك يا عبد الرحمن ؟ (بقعة على سطح المرمر فى أحد الأعمدة تذكر بوضوح رأس عربى ، تقبله الزهراء) .

صـــــــوت : « سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى » سبحوه سبحوه (أطلال مدينة الزهراء) لم يكن هذا بسبب سخط البربر ، بل بسخط الله الذى أتى على كل هاته العظمة لكى يتذكر الناس أن تسامحه ليس مطلقا ، وأن حبه ليس مطلقا وكذلك ابتلاءات حبه غير مطلقة .

الـــزهـــراء : كانت هذه المدينة تسمى الزهراء ، لم تدم أكثر من عمر زهرة . لكن ماذا يعنينا ؟ إن حبى لك ليس فى حاجة إلى الحياة لكى يظل متوهجا .

عـبـد الرحـمن : (خارج المشهد) على كل هذه الأحجار أمرت أن ينقش حبى لك ، فإذا حدث فى يوم ما أن داهمها خراب جعل عاليها سافلها فإن كل بقية من بقاياها تشهد على الحب (الزهراء تتأمل زهرة فى وسط الأنقاض)

اقطفى هذه الزهرة الآن وبعد ذلك ،
بمجرد النظر إليها تتحول إلى لا شىء . .
(فى الحدائق المزهرة فى القصر القديم ،
على شاطئ نهرالوادى الكبير)

الزهراء : ذات يوم ، كنت أرى الماء يجرى كثيفاً مثل الزيت ، وبين الطواحين قلت لى . . .

عبد الرحمن : (**خارج المشهد**) لوددت أن أبين لك أنه لا أحد فى هذا العالم أحب أحدا مثلما أحبك أنت ، فماذا أستطيع أن أفعل ؟

الزهراء : (**خارج المشهد**) حدّق فى يا عبد الرحمن ، حدّق فىّ ، إن الله خلق أمته على عينه ، حسبى هذا لأعظم الله فى نفسى ، (حاضرة) هكذا أجبتك . . . منذ ذلك اليوم . آه أى نحيب قد حملته المياه ، لكنك أصررت .

عبد الرحمن : (**خارج المشهد**) ماذا ينقصك يازهراء ؟

الزهـــراء : (**كأنها تلعب**) (**خارج المشهد**) إن قرطبة مرآة العالم يا عبد الرحمن : عقده الفريد ، إنك وهبتها الجمال والسلام : هذان هما ينبوعا الحكمة ، لكن قرطبة يعوزها شيء ما ، كان لدىّ في جبل إلبيرة قبل أن أعرفك .

عبد الرحمن : (**خارج المشهد**) ما هو يازهراء ؟ قوليه لى وستجدينه هنا أيضا .

الزهـــراء : (**خارج المشهد**) ليس فى الإمكان ، إن الله قد صنع بإرادته الجبل والسهل ، والحر والقرور ، يطلقون على جبلك هنا اسم الجبل الأسمر ، ويطلقون على جبلى جبل الثلج ، وأنا منذ طفولتى أقضى أصيل الشتاء أرقب فى ذهول سقوط البرد ، ولا تعرف قرطبة الجليد ، وأنت يا عبد الرحمن ليس فى ذرعك مع كل سلطانك أن تجعل قرطبة تثلج .

عبد الرحمن : (**خارج المشهد**) ستثلج من أجلك يازهراء ، ياحبى ، سأجعلها تثلج .

الزهراء : غطيت بأشجار اللوز جبل العروس (جبل المحبوبة) يا عبد الرحمن وآض جبلك الأسمر أبيض من الحب مثل العروس ، أبيض مثل جبلى ، وفى الصباح حين أرى الجليد المعطر ظننت أنى أموت من الحب وكل عام كثيراً ما كنت أهبط فى اليوم الذى تزهر فيه أشجار اللوز لأقدم شكرى . . شكرى على حنان جليدك وحرارته يا عبد الرحمن ياسيدى ، سيدى ، سيدى أنا . .

(فى متحف الآثار صاعدة نحو القاعات العربية) .

الزهراء : لا يكاد أحد الآن يتذكر إلا يجد شواهد الحب الكثيرة باردة ومرتبة ها هو المرمر المهشم حيث أمرت بحفر العهد فى أول ليلة : « سأبتعد عن كل

ما يبعدنى عنك » ماذا حدث للجزء الآخر ؟ « سأنأى عن كل ما يقصينى عنك » . . . الأمر سواء حيث يكون : من الممكن أن يتهشم المرمر ، لكن عهدنا لا يا عبد الرحمن (أمام مائدة عليها جواهر) إنها جواهرى ، كانت جواهرى ، الجواهر الدون ، المحتقرة من كل السلب (ترفع الغطاء الزجاجى ، تتقلد عقدا) .

عبد الرحمن : (**خارج المشهد**) إن نحرك رقيق جدا يازهراء شديد الرقة لدرجة أن جواهر الطوق تميل به (تلبس الزهراء أسورة تتسق تماما مع معصمها) إن جلد معصميك هائل الرقة حتى الأساور تدميهما .

الزهراء : (تشرب كأسا) ذات مساء ، تحت شمس زعفرانية متكئين على مخمل الآس ، مترنحين من السعادة ، لم يكن أحد من الملوك مثلك ،

أنـــا وأنـــت فـحـســـب يا عـبـد الرحـمن ، شربت نـبـيـذا أصـهب من هذه الـكأس ، على حـافـتـهـا ظلت شـفـتـاك بعض وقت . . . (تـكاد تبكى ، تجـيل شـفـتـيـهـا على دائرة الكأس) ، بعـد ذلك حـضـرت سكرة الموت ، وحلـم الموت (تـقـع الزهـراء متكئـة فى إحـدى القـاعـات فى أطلال مـدينة الزهرا ء) جـاءت ليلة الخطر ، والفراق .

صـــــوت : لقـد اجتنبـتم مـا أمـر الله بـه ، سوف يجرفكم بماحقه ، تحاولون التوحد وليس ذاك بمتـيسـر ، لن يدافع عنكـم أحـد ، لأن الله سـمك السـمـاء بيـديه خلقـهـا فى راحـة وجـعل الأرض مـشـاعـا ، خـضـراء ، ذات أنهـار عـراض ، وأنـتـم أردتم أن تجعلوا لكم وحـدكم سماء فى الأرض .

الـــزهـــراء : لا شئ يقف أمام قضاء الله (أصوات

قصيـة من عبـد الرحـمن ، فـى نشيج
تنادى الزهراء) هاته الأصوات أطلقتها
منـذ ألف سنـة وأكـثـر فى هـذا الوادى
رغبنا فـى البقـاء ، ياحبى ، بـيـد أنَّا لـم
نستطع ، الإنسان هو بدوى راحل ليس
فى ذرعــه اللبـث : الفــرار ، الفــرار ،
تذوى الغـلال ، ويذبل شـجـر اللوز ،
تتـلاشى الكلمـات ، والفـرسـان الذين
امتطوا صهـوة الجياد فى خيلاء يهوون
إلى الأرض ، والأسـقـف المذهبـة تخـر
على الأرض ، والجـمــال الذى تكـلف
سنين عـددا لكى يتم يسف ويسـقط
فى غمضة عين ، لكل أمة أجل إذا جاء
أجلهم فـلا يسـتـأخـرون سـاعـة ولا
يستقدمون ، لا شىء يقف أمام قضاء
الله ، لقـد دمرت بغـداد قبل قرطبـة ،
وأتى الدهر على عاشقين قبلنا ، ياعبد
الرحـمـن لـم تحـسن صـنعـا أن أطلقت
على هذه المدينة اســمى ، إن الزهر لا

عمر له تقريبا ، وداعا أيتها الشرفات المنطفئة ، والبقايا المجهدة التى شاهدت سعادتى ، وداعا شفافية النسيم ، وداعا أيها الشهود ، . . سيأتى يوم تتجمع فيه عظام الزهراء ، تكتمل فيه أنامل أصابعها ، يوم تضغط فيه يداى على يدى من هويت ، إذا خسف القمر ، وإذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، حين تخضر وجوه من يعيشون الآن ، ويبحثون عن ملاذ دون أن يصادفوه . . . لأننى أقسم لكم أن الحب لن يموت : إننى من الحب وللحب خلقت ؛ لهذا حين أعود إلى الحياة – فالأحجار وأشجار اللوز ، والمنارات الهاوية ، والرياحين ، والنخيل ، والأقواس ، والمعادن ، والروعة البائدة – يامدينة الزهراء فإن كل بقاياك حيث كانت قصية ، أو غائرة ستؤوب إلى مكانها حيث

وضـعـهـا الحب ، لأنك يامـدينتى
أنشئت مثلى من الحب وإلى الحب . .
(إلى الداخل) وأنتم أيهـا العـشـاق
أحبوا دون أنْ تضيعوا لحظة واحدة .
قبلوا ضـوء الشـمس ، أو ضوء القـمر
(يبـدأ الصبح يتنفس) هذا الضوء
الذى يبحث عنكم مجتهدا قرونا إثر
قرون لكنه يبحث عن قبض الريح . . .
مثلما بحث عنى ولـم يلقنى (تختفى
الزهراء حقيقة وراء أحد الأعمدة)
وداعا أيها العالم الذى عشقت فيه ،
والذى كنت فيه معشوقة ، (وراء
العـمـود تنهض حـمـامـة ، هى التى
كانت فى البداية ، تطير نحو جهة لا
ندريها) .